الفصل الخامس

الشرف

الشرف والصراحة عند اليابانيين متحدان في أواصر عميقة وتداخلات متجانسة يصعب فصلهما عن بعض، وهما عادة يصدران عن عاطفة نبيلة وإحساس شريف. وربما الغرب الذي ننقل عنه مصطلحاته عن الحضارة أو الشرف أو غيره يسبب لنا الارتباك والاختلاف والسبب في ذلك أن مفردات اللغة يقابلها كثير من المصطلحات والمعاني، ومن البديهي أن أي مصطلح يبدأ غامضا وغير محدد بدقة ولكن مع مضي الوقت وكثرة الاستعمال يذهب هذا الغموض ويتحدد المصطلح. ولما كان الغرب يختلف بل يتوسع في الاختلاف بحيث يضع للثقافة أكثر من ١٦٥ تعريفا ومثلها للدولة والحضارة، من هنا جاء الاختلاف عند كل أمة في تعريف مفاهيمها نقلا عن تراثها وتاريخها المتواصل ،ونظرالأن اليابان تعمق الروابط بين الصراحة والشعور الشريف وهو ما يعرف بالشرف كإحساس

إنساني أو عاطفة تفرض شعورا بليغا بالقيمة والكرامة "الشرف "ويطلق عليها Meiyo 名誉 باللغة اليابانية .وكما عرفها اليابانيون القدماء بأنها سيرة الإنسان، وكما نقلت عن الإغريق هو ما يدل على شهرة الإنسان العامة أو الناحية الخالدة فيه. والبديهي أن يكون هذا الشخص خاليا من أي عيوب تؤدي للشعور بالخجل من أعماله والذي يعرف في اللغة اليابانية ب Bujokukan (侮辱感) ودأبوا على تربية أبنائهم منذ الصغر على التخلص منه، وتهذيبهم لأي اعوجاج في السلوك بحيث تكون أعمالهم مبعثا للفخر وبعيدة عن الهزأ والخجل منها، ولذلك نلاحظ حرص الساموراي في شبابه على حماية سمعته والدفاع عنها من أتفه الأشياء التي تلوثها ،وربما كان هذا أحد الأسباب التي أدت لاندلاع الحروب والنزاعات لأنهم كانوا يحرصون كل الحرص على الشرف كحرص المقاتل على سيفه ولهذا امتازت اليابان أخلاقيا بهذا عن سائر الأمم،

مهما أطلنا في الشرح عن هذه الفضيلة لن نصل إلى تعريف شامل ودقيق لها يساعد على بيان التركيبة التي يتكون منها الشرف عند الإنسان . وذهب بعض المفكرين إلى أقوال متفاوتة فمنهم على سبيل المثال من ذهب إلى أن من يحسن ويخلص القيام بواجبه يصيب القدر الأكبر من الشرف والكبرياء سواء أكان عالما درس الكتب القديمة أم فلاحا أم حمالاً شب وبلغ مرحلة الرجولة في جزء من

اليابان ولم تعصف به رياح التأثر بالغرب، وهو يكشف عن نفسه في تأكيد هاديء ليس به شيء من الكبرياء، في بشاشة ناعمة لا يكدر صفوها شيء، فهي صفة يحسدون عليها لهذا التوازن والتعادل لأنها ليست مجرد مبادئ أخلاقية ولا طريقة تفكير إنما هو أسلوب حياة يرجع جانب منه إلى ممارسة الطقوس الدينية التي قالها كونفوشيوس منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة وأستمر اليابانيون في التثقيف بها إلى يومنا هذا . والشرف تتفاوت معانيه حسب قيمة المعاني الخالدة التي ترمز إليها .

فشرف الأمة كلمة تعنى مضامين ضاربة الجذور في القدم تعنى كل ما يمس ماضي هذه الأمة وحاضرها بحيث لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا واحتوتها في هذا المعنى . . وشرف الدولة تعنى سيادتها وحريتها التي يجب الحرص عليها ضد أي معتدى يهدد سلامة أراضيها . .وشرف العائلة وتعنى كل ما يمس كرامة وحرمة هذه العائلة أو أحد من أبنائها حيا كان أو ميتا . .

من هنا نجد أن الفلسفة لا تقدم جوابا شافيا لكل قيم البوشيدو ولا تحل كل مشاكل تواجه الإنسان القديم أو الحديث ولا تستطيع أي فلسفة هذا ولكن اليابانيين رأوا بعض الأمور ربما أغفلتها الأمم الأخرى فغرسوها في أبنائهم وأعدوا بها فرسانهم وهناك قيم أخرى

كثيرة أرتكز عليها العهد الإقطاعي منها الشرف والذي كان يفتدى به كل غال وثمين.

يعتبر (منشيوس) عالما نفسيا فقد كان صاحب نظرية أن الروح والجسد منفصلين وهي فكرة لم تخطر على بال رجال عصره لخطورتها، وربما حتى هذا العصر الحديث مازالت الفكرة بين المؤيد والمعارض، ومع ذلك فقد كان عنده من السيكولوجية الثنائية ما يمكن أن نطلق عليه (الطبيعة العاطفية) Emotional nature والملكات العقلية وهي اصطلاحات تقريبية لمصطلحات منشيوس، ولم يعتبر أحداها خيرة والأخرى شريرة ولكنه كان يؤمن بالسيادة للملكات العقلية وإنها مترابطة ومتحدة إتحادا قويا يمكنها أن تنتزع السيادة من الملكات العقلية.

إن طبيعة الإنسان الفطرية ليست كاملة فحسب بل كل الأشياء مكتملة في داخلنا ومن يعرف تماما طبيعته الذاتية يعرف السماء، وليس من الضروري أن نحاول تحديد :هل قصد منشيوس أن المرء يعرف عن طريق الفحص الداخلي وحدة طبيعة العالم الذي حوله أم أنه يقصد فقط أن المرء يمكنه بهذه الطريقة أن يتعلم مبادئ الأخلاق التي لها أهمية عظيمة. وهناك فقرات أخرى في كتاب منشيوس يظهر فيها أنه انحرف بعيدا من مبدأ كونفوشيوس الأصلي وتوحي مظاهر معينة لشكل هذه الفقرات عن محتوياتها باحتمال أنها ربما لم

تكن العبارات الأصلية التي تفوه بها منشيوس وأنها بدلا من ذلك قد دُست على النص دسا وهي على أية حال أكثر اقترابا من نوع التفكير الذي يطلق عليه منهج الطريق ومنها فكرة الشرف.[٣٥]

ويقول مانسيوس عن ذلك" أن اسوداد الشرف بالأدران الفاسدة إنما هو بمثابة شق في جزع شجرة يتسع نطاقه مع الأيام . وقال: أن الإحساس بالخجل هي البيئة التي تتربى فيها جميع الخصال الإنسانية، وان الشرف مغروس في القلوب.

والشرف بمعناه المألوف ليس هو العاطفة السامية التي طالما بشرت بها الديانات السماوية ودعت إلى اعتناقها المبادئ الصالحة ولكن الشرف وفقا لمعناه هو مقاد أخلاقية ينكر فيها كل من يثور ويغضب ولا يتورع عن الأجرام وسفك الدماء من أجل شتيمة تافهة لحقت به والعدل في موقفه والأنصاف في عزيمته.

وفي قصة تفسر هذه الأقوال والكلمات مفادها أن رجلا من فرسان العهد القديم قتل آخر لأنه ناداه وأخبره أن هناك ذباب يحوم حول ظهره ، فبحركة لا شعورية استل سيفه وأطاح برأسه وقال مبررا ذلك أن ضحيته أراد من وراء ذلك إلصاق الأمانة به لاعتقاده أن الذباب من الحشرات المتطفلة وتأبي عليه كرامته ذلك، ومضى في طريقه، ولكن فلسفة منشيوس قالت:" لو أنني أسير في طريق متطلعا

[٣٥] شافان " مذكرات سي – ماتشين التاريخية " ج٢ ص ١٣٥.

إلى النجوم وأفكر وتعثرت قدمي في صخرة ففي لحظة قصيرة هزني الخوف ولكن أستجمع قواي ثانية فإذا ما استجمعتها يمكنني أن أستأنف طريقي ثانية."

ما أرخص وأبخس الحياة إذا ذهبت تضحية للشرف فالشرف بات من أكثر المبادئ حرصا عند فرسان (البوشيدو) لا تعد له قيمة ولا يساويه أي شيء آخر وزنا .